صورة المرأة في الشعر العربي القديم

منذ وجد الإنسان على سطح هذه المعمورة وهو يستفسر عن سر انقسامه ــ بل وكل الأشياء الحية المتحركة ـ إلى ذكر وأنثى، وعن هذه الاختلافات النفسية والجسدية بينهما، وعن قدرة الأنثى على الإنجاب وتحقيق التواصل وتعويض ما يأخذه الموت من الأحياء كل لحظة . والشاعر القديم احتل هذا الموضوع لديه أهمية كبرى فعالجه ضمن غرض واسع الانتشار هو الغزل بنوعيه النسيب والتشبيب.

أولا / ما قبل الإسلام

أ ـ المرأة المثالية :

لقد ربط قدماء البشر بين خصوبة المرأة وبين خصوبة الأرض، حتى سميت الأرض أما، وصاروا يعبدون آلهة على شكل أمهات، حتى بعد أن اكتشفوا أن للرجل دورا مهما في عملية الإنجاب، ولا شك أن هناك مواصفات محددة للآلهة الأم التي ستمثل فكرة الخصوبة والحياة والاستمرار، يقول براندون: "في العديد من المدن وجدت تماثيل من الحجر أو العظام، لنساء يلفت النظر إليها شيئان : أن الأعضاء الأنثوية قد بولغ في تضخيمها، وأن الوجه لا يحمل أية ملامح .. ومغزى ذلك أنهم لم يكونوا يرسمون امرأة بعينها، ولكنهم يستحضرون المرأة بوصفها أما، أي مصدرا الخصوبة واستمرار الحياة" .

لم يعرف العرب من جهتهم ــ بحكم طبيعة الصحراء ــ زراعة قوية تعتمد على تعاقب الفصول كما هو الشأن في المناطق الخصبة، لذلك اتجهوا نحو الشمس وهي أبرز معلم في بيئتهم فأصبغوا عليها صفة الأمومة وعبدوها، وفي لغتهم ظهر ذلك في تأنيث الشمس وهي مذكر في اللغات الأخرى، وصارت الغزالة والمهاة والنخلة والفرس والناقة والمرأة رموزا مقدسة للشمس الأم، ولعل هذا هو سر اتيان الشاعر لهذه المواضيع المختلفة جنبا إلى جنب في قصيدته، مع الإشارة إلى أن الشعر الجاهلي الذي وصلنا لم يحتفظ إلا بترسبات قليلة جدا من الديانات القديمة التي

ضاعت ونسيها الناس ولم تبق منها إلا بعض الطقوس الدينية التي تحولت إلى تقاليد فنية اتبعها الشعراء ووصلنا منها شيء قليل .

لقد جمع الشعراء الجاهليون في غزلهم بالمرأة بعضا من تلك الأفكار الدينية الموغلة في القدم التي تربطها بالخصوبة والأمومة، فأصبغوا عليها بشكل غير واع صورا وصفات مقدسة تعبدية آمن بها الإنسان القديم، ومن المعروف أن صورة المثال المعبود لا بد أن تتوفر على الصفات التي تؤهلها لأداء دورها الذي تعبد لأجله، لذلك جاءت صورة المرأة في الشعر القديم حاملة لصفات الأمومة والخصوبة بشكل مبالغ فيه، فصورت المرأة ضخمة الأثداء والأرداف، حاملا، دون ملامح . يقول امرؤ القيس:

و يا رب يوم ناعم قد لهوته   بمرتجة الحاذين ملتفة الحشا
برهرهة كالشمس في يوم صحوها   تضيء ظلام البيت في ليلة الدجى
أسيلة مستن الوشاح كأنما   تكسر في أوراكها هابر النقا
مضمخة الأردان سهل حديثها   لطيفة طي الكشح وهنانة الخطا

في هذه الأبيات وصف لامرأة مثالية متخيلة، مع تركيز على عنصرين : الفخذ ممتلئ، والخصر ضامر، صور الفخذين بثلاث عبارات : مرتجة الحاذين / تكسر في أوراكها هابر النقا / وهنانة الخطى، وصور ضمور الخصر بثلاث عبارات أيضا : ملتفة الحشا / أسيلة مستن الوشاح / لطيفة طي الكشح . وتجمع كل هذه الصفات كلمة واحدة برهرهة التي توحي حروفها بالارتجاج مقرونة بصورة الأم المعبودة "الشمس"، التي تبدد ظلام الليل، وفي البيت الأخير يكمل الصورة بالحديث إلى رائحتها "مضمخة الأردان"، وإلى كلامها "سهل حديثها" . وهكذا تشترك حواس النظر والشم والسمع في تصوير هذا النموذج المثالي .

والمرأة التي يصفها الشعراء في قصائدهم بالصفات النموذجية ليست امرأة حقيقية بعينها، بل متخيلة وإن أسموها تسميات مختلفة متكررة (سعاد ـــ ليلى ..) لاشتراك النساء الموصوفات بخصائص محددة معروفة سابقا يحاول الشاعر الوصول إلى أحسن صورة وأدق تعبير عنها .

وقد ربط الشاعر القديم بين صورة المرأة / الأم / واهبة الحياة / وبين الشمس ربطا قويا، تجلى في أشعار كثيرة تم فيها التغزل بوجه المرأة، أو بشرتها، أو بريق

أسـنانها، وتطور ذلك إلى جعل النخلة والغزالة رموزا مقدسـة للشـمس التي ترمز بدورها للمرأة . ومثال ذلك قول طرفة :

وفي الحي أحوى ينفض المرد شادن   مظاهر سمطي لؤلؤ وزبرجد
خذول تراعي ربربا بخميلة   تناول أطراف البرير وترتدي
سقته اياة الشمس إلا لثاته   أسف ولم تكدم عليه بإثمد
ووجه كأن الشمس ألقت رداءها   عليه نقي اللون لم يتخدد

فهو هنا يتغزل بامرأة هي غزالة "أحوى" وهي أيضا أم "خذول"، تمرح في خميلة كثيرة الأشجار خصبة بعناقيد سوداء، والشمس تلقي بضوئها كأنه المطر "سقته اياة الشمس" لتأكيد دلالة الخصوبة والأمومة، فظاهر الشعر أنه حديث عن غزال وباطنه حديث عن المرأة ذات الشعر الأسود الفاحم والبشرة البيضاء المضيئة، تتحد فيه العناصر الثلاثة : المرأة ـ الغزال ـ الشمس في صورة واحدة لا نكاد نفرق بينهم.

وقد جرت العادة أن يشبه وجه المرأة المتغزل بها بالشمس، وأن تشبه عيناها بعيني الغزال أو المها، أما الفم فيركز الشاعر فيه على بياض الأسنان وسواد اللثة، أما الشعر فأسود كالليل أو كالفحم أو كالتين، ويفضل بعضهم اكمال الصورة بوصف الريق كأنه الخمر الجيدة (مع الإشارة إلى أن الخمر عنصر تعبدي أيضا) كقول زهير:

كأن ريقتها بعد الكرى اغتبقت   من طيب الراح لما بعد أن عتقا
شج السقاة على ناجودها شبما   من ماء لينة لا طرقا ولا رنقا

وهو هنا يشير إلى الماء الذي هو أساس الخصب والبقاء، وحضور الماء في الغزل أمر شائع، وإن تبدى في صور عدة، كالمطر والسحاب والخمر والدمع والدم والبحر والوادي وريح الصبا وغير ذلك . وأبرز نموذج في هذا المجال امرؤ القيس في معلقته التي حفلت بحضور الماء وما في محله بشكل ملفت للانتباه .

وقد يفصل الشاعر عنصرا من عناصر صورة المرأة، فيصفه بالدرة أواللؤلؤ أو البيضة (التي تجمع البياض والاصفرار معا كالشمس) أو الحمامة (باعتباره طائرا ودودا كثير التغزل بأنثاه)، مع التعرض في كثير من الأحيان إلى علاقة هذه الأشياء / الصفات بالشمس، كقول قيس بن الخطيم يصف المرأة بأنها درة :

حوراء جيداء يستضاء بها   كأنها خوط بانة قضف
كأنها درة أحاط بها الغوا   ص يجلو عن وجهها الصدف

أو كقول المخبل السعدي يصفها بالبيضة :

أو بيضة الدعص التي وضعت   في الأرض ليس لمسها حجم
سبقت قرائنها وأدفأها   قرد الجناح كأنه هدم

أو كقول الأعشى يصف يديها بأرجل حمامة :

تجلو بقادمتي حمامة أيكة   بردا أسف لثاته بسواد

أو كقوله يصفها بالدمية :

وقد أراها وسط أترابها   في الحي ذي البهجة والسامر
كدمية صور محرابها   بمذهب في مرمر مائر

ولا تخفى هنا الدلالات الدينية لكلمة دمية التي تشير إلى معنى الصنم المعبود الموضوع في محراب فخم يتداخل فيه الذهب والمرمر للتعبد والصلاة والتقرب .

ومن الصفات المحببة للمرأة المثال لدى الشعراء القدماء الطول، فكانوا يشبهونها بالنخلة كقول امرئ القيس :

فشبهتهم في الآل لما تكمشوا   حدائق دوم أو سفينا مقيرا
أو المكرعات من نخيل ابن يامن   دوين الصفا اللائي يلين المشقرا
سوامق جبار أثيث فروعه   وعالين قنوانا من البسر أحمرا

فالنخلات المشبه بها مرتويات مخصبات طيبات الثمر، صاحبها شديد له أولاد يحمونها باخلاص، وقد يجمع بعضهم في تصويره للمرأة بين الغزال والنخل كقول أبي دؤاد الإيادي :

وتراهن في الهوادج كالغزلان ما إن ينالهن سهام
نخلات من نخل بيسان أينعن جميعا ونبتهن تؤام

كذلك عمد الشعراء أحيانا إلى اعتماد صورة للمرأة على أنها ربة مقاتلة، وهي بلا شك صورة قديمة عرفتها الحضارات السابقة، فقد كانت أثينا في اليونان إلهة محاربة تحمل درعا ورمحا، وكذلك عشتار في الحضارة البابلية، وعنات لدى الكنعانيين . ولعل تأنيث الحرب والمعركة في اللغة العربية من تأثير تصور الحرب على أنها امرأة، امرأة مخيفة، من صفاتها عوان أي تعاقب عليها الأزواج، أي الأبطال المقاتلون، يقول زهير :

إذا لقحت حرب عوان مضرة   ضروس تهر الناس أنيابها العصل

قضاعية أو أختها مضرية   يحرق في ساحاتها الحطب الجزل

فيصـــورها أنثى تلقح فتحمل وتلد، لكنها لا تلد الحياة بل الخراب والموت، فهي أنثى ذات خصوبة سلبية :

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم   كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم

ولا يوجد في الشـــعر العربي القديم ما هو أكثر صـــراحة في هذا المعنى من المقطع المنسوب لامرئ القيس :

الحرب أول ما تـكون فتية   تسعى بزينتها لكل جهـول

حتى إذا استعرت وشب ضرامها   عادت عجوزا غير ذات خليل

شمطاء جزت رأسها وتنكرت   مكروهـة للشم والتقبيل

ويمكن تلخيص صـــورة المرأة المثالية في الشـــعر القديم فنذكر أن جســـدها ممتلئ، ووجهها دون ملامح كأنه شـــمس مضـــيئة، وعيناها عينا مهاة أم، ورقبتها رقبة ظبية أم، وشفاهها داكنة وأسنانها بيضاء ناصعة كالبلور أو حبات البرد، وشعرها فاحم كالليل، وبشرتها ناعمة ملساء كالبيضة، وريقها كالخمر أو كماء المطر .. كل ذلك في إطار من الإشارات الدالة على الخصوبة والإنجاب والأمومة والرفاهية والسلطة، هذه الأخيرة التي يشير إليها الشعراء حين يصفون المتغزل بها أنها كسلانة ثقيلة الحركة لا تقوم لعمل ولا تنهض باكرا، لأن هناك من يقوم على خدمتها، ودود، دائمة النعاس . بكر، ناعمة، عذراء .

وما يمكن ملاحظته هو تركيز الشـــعراء على المظاهر الخارجية لجمال المرأة المثال وإهمالهم لصـــفاتها النفســـية أو الأخلاقية، واتباعهم نفس التشـــبيهات لنفس الأوصـــاف تقريبا دون ابداع أو خروج كبير، وهم حين يصـــفون المرأة المثال يميلون إلى تســـكين حركتها لاعطاء الانطباع أنها دمية أو تمثال في محراب، وهنا يبرز التأثير الديني في تشـكيل هذه الصـورة التي هي أقرب للتعبد والمناجاة، تعبد ومناجاة لشـيء يهب الحياة ويضـمن البقاء والخلود عبر الإنجاب والتناسـل، ولعل هذا سـبب تسـمية الشعراء لنسائهم :"أم أوفى، أم عمرو، أم جندب، أم أبان .." .